عقيدة الحبل بلا دنس وأئمة السريان الارثوذكس

للخوري اسحق ارملة السرياني

من تصفح تصانيف أئمة السريان الارثوذكس وأنعم النظر في ما كتبوه ونظموه عن سيدتنا العذراء مريم أم الله القدوس تجلى له جزيل اعتبارهم لمناقبها الشريفة الممتازة واستجلى استرسالهم في وصف مزاياها النادرة الوافرة. فتوخينا ان نلتقط منها شذرات تدور حول موضوعنا اعني الحبل بها من امها القديسة حنة دون وصمة او درن.

اولًا: أئمة السريان الارثوذكس

١ً: البطريرك سويرا (٥١٢-٥١٩ ÷ ٥٣٨)

هو اوّل بطريرك انطاكي ناهض عقيدة المجمع الخلقيدوني المسكوني المقدس فعزله البابا اغابيط الروماني (٥٣٥-٥٣٦) وانطلق الى مصر وفيها توفي. وخلف هذا البطريرك خطباً او مواعظ باللغة اليونانية نُقلت منذ القرن السابع الى السريانية. نذكر منها خطبته في تعداد مناقب العذراء الفريدة نقلًا عن مخطوطة لندن السريانية (رقم ٨١٤) هذا تعريبها:

«خطبة مار سويرا البطريرك في تقريظ والدة الله مريم الدائمة بتوليتها.
«اني لما اعترمتُ ان اقرّظ والدة الله العذراء، وأخذت القلم بين انامل لادوّن نعوتها واوصافها شعرتُ بصوتٍ الاهيّ خفيّ يرنّ في اذنيّ ويقول: اياك ان تدنو من هنا!».

ثم حقق الخطيب يستقصي مناقب العذراء الجزيلة قداستها واصفاً طهارتها وتواضعها وعفافها واصرامها وصلواتها المتواترة وقيامها وقعودها مع الفتيات صواحبها في الهيكل موردًا ما اشار اليه عنها الآباء والانبياء والملهمون ولاسيما عصمتها من كل شائبة.

٢ً: يعقوب الرهاوي (÷ ٧٠٨)

هو في طليعة ناظمي الصلوات القانونية. ومن منظوماته قصيدة يهجو بها تطور عدوّ العذراء المنبوطة ورد فيها ما تعريبه:

؟ السلم اسير الرحيم في النشر منذ حواء . غير ان العذر . عمت عينه وحطمته . وجبت حواء بدأ الموت فأنتجت الموت . اما مريم فاصعت الى ثمرة الحياة فولدت الحياة والخلاص . في بيان عمرنا رحمة مريم بوساطة جبرائيل ملاك السلام و اشر الامان » (١

٣ : طيمثاوس مطران جرجر (١١٠٩ — ١١٦٣)

نظم هذا المطران الجليل قصيدة افرامية في مديح انتقال العذراء المغبوطة الى السماء بنفسها وجسدها . وهي من أنفس القصائد وأجملها . منها نسخ شتى يطالعها اخوتنا السريان . وقد نشرها برمّتها الاب جبرائيل قرداحي الماروني في « كنز الثمين » (ص ١٤٥—١٥٩) نقتطف منها ما يلي :

« ان العذراء الفائق سموها سموّ السماء قد دُفنت في الارض . . . وعوضاً عن احتفائها بيسوع ابنها قد احتفى السواريف بانتقالها . وبدلاً من مناغاتها ليسوع طفلها ترنم جمهور الملائكة بمدحها . . . ما من احد من الانام المختارين المشاهير احب الى يسوع ابنها او اعز منها لديه ! نمت في الابن وامه المساواة والموافقة الكاملة . ساوى ابن الله نفسه وعادلها مع نفس امه مريم ! ليس في السماء او الارض أسمى وارفع من مريم ! فاح من جسدها الاقدس عُرفٌ الاهي استنشقه الملائكة المحدقون بها اجواقاً وصفوفاً . وانتشوا بالاريج الزكيّ الصادر من جسدها الاقدس !

«قديونيسيوس الكبير الاريوفاغي وصف انتقالها هذا العجيب المدهش وعنه أخذنا نحن. باي عطورٍ نكرّم جسدها النقي الطاهر ؟ وباي اناشيد نمدح الهيكل الذي ثوى فيه ابن الله عز شأنه ؟ مع جسد العذراء المقدس انبثقت اشفية وادوية شتى وأبرأت المرضى والسقام . . تحققت الاسرار وصحت الالغاز فيها وفي جسدها المقدس . وأدرك الملائكة والبشر معاً انها ارفع وانقى من السماء فحيّاها وطفقوا يترنمون هاتفين : مرحباً بك يا عرش الاله العلي ! يا مركبةً حيةً ! فاذا كان لله السخيّ يكافئ اصفياءه مائة بدلاً من الواحد فما قولنا في مكافأته للعذراء التي تفوقهم مجداً وقداسةً ؟ فلقد تفرّدت العذراء دونهم بقداستها المصونة عن كل وصمة وشائبة . . . الا ايها البشر ارفعوا رؤوسكم مبتهجين لان مريم بنت داود استحقت لكم السماء !!!» .

ثانياً : الاستغفاريات

يُعَد يوحنا الثالث بطريرك السريان الارثوذكس (٦٣١—٦٤٩) اول من انشأ الابتهالات الاستغفارية . ونسج على منواله رهطٌ صالح من البطاركة والاساقفة ورؤساء الديورة والرهبان . وضمت تآليفهم هذه الى الصلوات

١) الكنز الثمين : للاب جبرائيل قرداحي ١٨ و١٩

القانونية . وأحصى منها ٣٦ مجلداً البطريرك افرام برصوم المنضوط في لؤلؤه المنثور[1] » . منها سبعة منسوخة على الرق منذ القرن العاشر حتى السادس عشر. هذا سوى ما تحويه الكنائس السريانية وخزائن اوربا واميركا ودير الشرفة بلبنان وغيرها . وها نحن نقتضب منها ما يدور حول موضوعنا :

أ : استغارية عيد ميلاد العذراء في ٨ ايلول .

« تبارك الربّ الذي أشرق من مستودع العذراء القديسة مريم . منها نشأ الخلاص للبشر طرًّا . وفيها صح ما كتبه اشعيا النبي (٢٩ : ١١ و١٢) وهو: « كأقوال كتاب مختوم يناولونه لمن يعرف الكتابة قائلين : اقرأ هذا . فيقول : لا استطيع لانه مختوم . ثم يُناوَل الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويُقال له : اقرأ هذا . فيقول:لا اعرف الكتابة » . ذلك لان هذا الكتاب مصونٌ ليسوع القدير . مشيرًا بذلك الى اصطفاء مريم العذراء القديسة التي باركها الربّ قبل ميلادها ! وأنذر بها الانبياء الملهمون فقالوا : ان النعمة الالهية سبقت فاصطفتها . . .

« فيا ايتها النساء جملةً احتفلن بهذا العيد الروحانيّ واهتفن قائلات : اليوم حفيل جنسنا على الفرح القديم . لان حواء امّنا انتجت لنا السقوط ومريم أنعشتنا وبهجت لنا السبيل السوي الى الفردوس الذي طُردنا منه . . . أبهجنا يا ربّنا بميلاد العذراء مثلما أبهجت الملائكة . . . ان جسدها طاهر نقيّ منزّه عن كل وصمة . . . هي السحابة الخفيفة التي ولدت المطر السماوي ورحضت وصمة آدم ابيها . ونصبت لذريتنا غرسة البتولية الاولى . . . الحمد للربّ الكريم الذي سبق فاصطفاكِ منذ الحبل بكِ وأحبّ ان تكوني أمًّا له »[2] .

ب : عيد بشارة العذراء .

«هو الاله المحتجب قدّس بروحه القدّوس مثوى مستودع العذراء القديسة المجيد قبل الحداره العجيب اليها ! فحيّاها جبرائيل رئيس الملائكة قائلًا :« السلام لكِ يا ممتلئة نعمة»[3] . إذن كانت العذراء مفعمة نعمةً وقداسة قبلما يبشّرها رئيس الملائكة.

١) اللؤلؤ المنثور ١٠٠–١٠١

٢) الصلوات القانونية ٦ : ٤٣٨ و ٤٤٠ و ٤٥٣

٣) فيه ١ : ٨٦

٣ : احد وحي يوسف .

قال الملاك ليوسف في حلم :

« لا يخافنك ربب يا يوسف بسبب مريم خطيبتك . لانّ بتوليتها مصونة معصومة ولا اثر فيها للدنس والفساد . . . طوبى لها وطوبى لنفسها لانها أقدس من الكواريب ! فقال يوسف : اني امجد لكِ يا سماء جديدة تفوق السماء سموًّا وجلالاً » (١

٤ : عيد هنئة العذراء بميلاد ابنها يسوع .

« مَن تراه يستطيع ان يظفر اكاليل تهانئ جديرة بقداستك ؟ انكِ أسمى من السواريف وارفع من الكواريب ! فالسارافيم أخذ جمرة بملقط من المذبح ولمس فم اشعيا (٦ : ٦ و٧) . اما انتِ فحملتِ الربّ في مستودعك » .

٥ : تذكار العذراء لتبشير الملاك (١٥ ايار) .

« لقد أشرفتَ يا ربّ بمحبتك الفيّاضة من سما جلالك الرهيب واصطفيت ارضاً جيدة نقية اعني مستودع ابنة داود الفريدة بطهارتها والسامية بقداستها ومنحتَ الخلاص للبشر » .

٦ : عيد انتقال العذراء الى السماء بنفسها وجسدها .

« ان الملائكة وصفوف رؤساء الملائكة وجماهير الكواريب والسواريف يتزمون محبورين ويهتفون قائلين : مرحبا بكِ يا سماء ثانية وعرشاً الاهيًا ساميًا ومنارة حافلة بمصابيح نيرة !

« ترى مَن من البشر يستطيع ان ينسج حلةً من التقاريظ جديرة بقداستكِ يا ايتها العذراء الدائمة بتوليتها والفريدة بقداستها ! اننا نحتفل بموتك البهيج يا والدة الله احتفال الملائكة والرسل . انت جفنةٌ منزهة عن كل وصمةٍ وعيب . . . » (٢ .

ثالثاً : العذراء والدة الله في الشعر العامي

نظم فريق من السريان الكاثوليك والسريان الارثوذكس عدة مدائح عامية في وصف محاسن العذراء الجزيلة قداستها (٣ نقتصر منها على ذكر احدهم

١) فيه ١ : ٢٢٤

٢) فيه ٦ : ٢٧٥ و ٢٧٦

٣) نشر الاب لويس شيخو الطيب الاثر بعض مدائح العذراء في الشعر العامي (المشرق ٧ : ١٠٤) فنهجنا منهاجه .

المفريان شمعون الطوراني (١٧١٠—١٧٣٠) السرياني الارثوذكسي . فقد حلف الشونة وقيفة مؤثرة ما برح اهالي ما بين النهرين يتغنون بها في الكنائس وفي البيوت . وهو ينعت العذراء بكونها ام المعونة وكنز الرحمة ووالدة الحياة وتهر الخلاص وسفينة نوح وشفيعة الخطأة والوسيطة بين الله العليّ والبشر الث . قال :

انا أمدحك والدة الله أم المُعين حتى أنال شفاعتك في يوم الدين
في عمري بفعلي الاثام في كل حين ودنا الرحيل وانا غافل فيمن استعين ❖
ممن اطلب باب من أقصد أقرع واصيح الا بابك كنز الرحمة أم المسيح
أصرخ وأنوح وابكي دائمًا ولا استريح حتى انالَ منكِ الشفاء لقلبي الجريح ❖
ما مَن يصعب عليه عني في المخلوقات ما مَن يحمل غمّ هلاكي بالسيئات
عليك همي ألقي امي أم الحياة اطلبي لي غفران ذنبي قبل الممات ❖
لاجل ذلك انا ملقى بين يديكِ أرغب منك تتوسلين لحبيبكِ
كي يرحمني ويغفر ذنبي بشفاعتكِ ولا يخيبني من رجائي بعونتكِ ❖
ارجو منك يا سفينة نوح الصديق مدي يدكِ وانشليني من الغريق
اذ ليس لي سواكِ امي احد صديق يساعدني ويفرج غمي في وقت الضيق ❖
في حياتي اخبري لي كل ولائي وشفعي بشفاعتك حين وفاتي
لدى الديان حامي عني يا نجاتي وامنحيني بياض الوجه يا مولاتي ❖
هذا املي وكل رجائي طول الايام اسعفيني واعضديني على الدوام
منكِ ارجو والدة الله فخر الانام أرجو غفران كل الذنوب مع الآثام ❖
منكِ اندفق خير الخلاص للعالمين ومنك صدر الرجا التام للمأيوسين
ردي عنا كيد الاعداء والظالمين وترحمي على نفوس الراقدين ❖

ليت شعري هل يسوغ لاحدٍ من اخوتنا السريان الارثوذكس الاعزاء وهم يطالعون ما أثبته آباؤهم وأجدادهم ان ينكروا على الله القدوس القدير ان يقدس نفس العذراء وجسدها منذ اول دقيقة من الحبل بها من امها القديسة حنة ؟

ألا فليكن ذكرٌ صالح ومؤيد لاحبار رومية العظام خلفاء مار بطرس رئيس الرسل الذين نادوا بهذه العقيدة الايمانية الراهنة . ونشروا رياها الفوّاح الزكي في مشارق العالم الكاثوليكي ومغاربه !